كتاب

حياة محمد

تأليف: ون وإن

دكتور محمد حسين

حياة محمد

كتاب ألفه الدكتور محمد حسين هيكل وأصدره ١٣٥٨ هجرية.

وقف وقفة طويلة عند الخلفية التاريخية والجغرافية والدينية قبل الإسلام استغرقت خمس الكتاب تقريبا أو ما يربو على مائة صفحة... وكان لابد من هذه الوقفة ليعرف القارىء أى طريق سافر فيه قلب الرسول عليه السلام لكى يصل إلى ما وصل إليه من نقلة إنسانية وحضارية كانت نقطة تحول فى تاريخ البشرية بعامة وتاريخ العرب بخاصة.

لا أقول هذا مسلمة لقد سبقنى إليه عدة باحثين منهم غربيون لقد ألف «مايكل هارت» عن أعظم مائة فى العالم – كتاب (الخالدون مائة) فوضع النبى العربى عليه السلام فى مقدمتهم وجاء ترتيبه فى الكتاب قبل المسيح الذى يدين به.

استهل الأديب الدكتور محمد حسين هيكل كتابه بهذه الترنيمة:

محمد عليه الصلاة والسلام:

بهذا الاسم الكريم تنطق ملايين الشفاه وله تهتز ملايين القلوب كل يوم مرات. وهذه الشفاه والقلوب به تنطق، وله تهتز منذ أربعمائة وألف سنة إلا خمسين وبهذا الاسم الكريم ستنطق ملايين الشفاه وتهتز ملايين القلوب إلى يوم الدين فإذا كان الفجر من كل يوم وتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود، أهاب المؤذن بالناس أن الصلاة خير من النوم، ودعاهم إلى السجود لله والصلاة على رسوله فاستجاب له الألوف والملايين فى مختلف أنحاء المعمورة يحيون بالصلاة رحمة الله وفضله متجليين فى مطلع كل نهار. وإذا كانت

زالت الشمس أهاب المؤذن بالناس لصلاة الظهر، ثم لصلوات العصر، فالمغرب وفى كل واحد من هذه الصلوات يذكر المسلمون محمدا عبدالله ونبيه ورسوله فى . وخشية وإنابة.. وهم فيما بين الصلوات الخمس ما يكادون يسمعون اسمه حتى قلوبهم بذكر الله وبذكر مصطفاه كذلك كانوا وكذلك سيكونون، حتى يظهر الله .ين القيّم ويتم نعمته على الناس أجمعين.

وبعد هذا الاستهلال ناقش الدكتور هيكل تكوين الامبراطورية الإسلامية الأولى.. ناقش الإسلام والمسيحية والمبادىء الأولية فى الدينين وما بينهما من مودة (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا، اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون).

وهنا ناقش فى موضوعية هادئة نقاط الخلاف التى استغلت أكثر مما انتفع بنقاط الالتقاء.

وناقش الدكتور هيكل المسيحية واليهود وأفرد الفصل الثانى لمكة والكعبة وقريش والفصل الثالث عن (محمد: من ميلاده إلى زواجه).

وهو فصل حافل بالإنسانيات... بالألم والشجن... بالحنان... بالحرمان.

أما الفصل الرابع فتمتد مساحته من الزواج إلى البعث.. ووقفت طويلا عند جبل حراء حيث يشهد الجبل سياحة فى النفس الزكية التى طهرها الله تطهيرا فارتفعت على الرجس تنشد الحقيقة فى الكون مستشرقة إلى «ما وراء..».

وكلما زرت مكة وطفت بالبيت ذهبت إلى جبل حراء وتخيلت رسولنا وهو يقطع الطريق الذى تطويه اليوم السيارات الفارهة كيف كان يتكبد وعثاء السفر إليه، أياما... هذا الجبل يسمى اليوم جبل النور وهو جدير... لقد كان إرهاصة لمطلع الفجر..

الفصل الخامس (من البعث إلى إسلام عمر...)

حقا كان إسلام عمر نقطة تحول فرق الله به بين الحق والباطل... إنه الفاروق عمر ... العادل عمر عطر التاريخ وآية الإسلام الشاهدة على صنع الرجال.

الفصل السادس (قصة الغرانيق) وقد واجه الدكتور هيكل هذه القصة الموضوعة وناقش كافة الآراء.

من عيون الكتب

وهى كما يقول (حجج واهية لاتقوم أمام التمحيص لتفاهتها علميا وتعدد فيها).

الفصل السابع (مساءات قريش) ويمتد موضوع هذا الفصل إلى الفصل الثامر كان هذا الفصل فى نهايته ترطب بالإسراء والمعراج.

والفصل التاسع استقل ببيعتين هما (بيعتا العقبة).

ويقف الفصل العاشر عند (هجرة الرسول) هاجر ليحيا ثم عاد ليكون العود أحلى هجرة شهدت بناء أول مسجد فى الإسلام هجرة شهدت كفالة حرية العقيدة بكتاب كتبه محمد عليه السلام بين المهاجرين والأنصار يعتبره الدكتور هيكل – ويحق – عملا سياسيا جليلا يدل على أعظم الاقتدار وقد استأثر هذا الكتاب بالفصل الحادى عشر فقد وضع الرسول عليه السلام للمدينة نظامها السياسى بالاتفاق مع اليهود على أساس متين من الحرية والتحالف باعتبارهم أحسنوا استقباله – وإن كانوا يستهدفون استدراجه إلى صفوفهم – وباعتبارهم أنهم أهل كتاب موحدون. على أنه لم ينج من غدرهم والمسلمون معه مما يفصله تاريخهم معهم حتى بعد أن اذعنوا لسلطان المسلمين إلى الحد الذى أهدوا إليه وإلى أصحابه شاة مسمومة.

(هذا الطور من حياة الرسول لم يسبقه إليه نبى أو رسول. فقد كان عيسى وكان موسى كان من سبقهما من الأنبياء يقفون عند الدعوة الدينية يبلغونها للناس من طريق الجدل ومن طريق المعجزة. ثم يتركون لمن بعدهم من الساسة وذوى السلطان أن ينشروا هذه الدعوة بالمقدرة السياسية وبالدفاع عن حرية إيمان الناس بها، ولو دفاعا مسلحا فيه الحرب والقتال. انتشرت المسيحية على يد الحواريين من بعد عيسى، فظلوا ومن تبعهم يعذبون، حتى جاء من الملوك من لان قلبه لهذا الدين فآواه ونشره وكذلك كان أمر سائر فى الأديان فى شرق العالم وغربه. فأما محمد فقد أراد الله أن يتم نشر الإسلام وانتصار كلمة الحلق على يديه، وأن يكون الرسول السياسى والمجاهد والفاتح، كل ذلك فى سبيل الله، وفى سبيل كلمة الحق التى بعث بها. وهو قد كان فى ذلك كله عظيما، وكان مثل الكمال الإنسانى على ما يجب أن يكون) ص ٢٢.

وأورد المؤلف، الوثيقة... الوثيقة السياسية التى وضعها محمد عليه السلام منذ ألف وثلاثمائة وخمسين سنة، والتى تقرر حرية العقيدة وحرية الرأى وحرمة المدنية وحرمة

الحياة وحرمة المال وتحريم الجريمة وهى فتح جديد فى الحياة السياسية والحياة المدنية فى عالم يومئذ.

لقد كانت هذه الوثيقة هى حجر الأساس للحضارة الإسلامية.

وحجر الأساس هذا هو الإخاء الإنسانى...

وعرضت الفصل من الثانى عشر إلى السادس عشر للغزوات وائتمار اليهود بالرسول ونكثهم العهد وإجلائهم عن المدنية.

وفى الفصل السابع عشر الذى تناول فيه المؤلف أزواج النبى فقرة ليت المؤرخين يستوعبونها.. فصل من حقه أن يقرأ كلمة كلمة فى إمعان... اكتفى أو اجتزىء بهذه الفقرة.

لقد تزوج خديجة وهو فى الثالثة والعشرين من عمره، وهو فى شرخ الصبا وريعان الفتوة ووسامة الطلعة وجمال القسمات وكمال الرجولية. مع ذلك ظلت خديجة وحدها زوجة ثمانيا وعشرين سنة حتى تخطى الخمسين. هذا على حين كان تعدد الزوجات أمرا شائعا بين العرب فى ذلك العهد، وعلى حين كان لمحمد مندوحة فى التزوج على خديجة، أن لم يعش له منها ذكر، فى وقت كانت توأد فيه البنات، وكان الذكور وحدهم، هم الذين يعتبرون خلفا. وقد ظل محمد مع خديجة سبع عشرة سنة قبل بعثه وإحدى عشرة سنة بعده وهو لايفكر قط فى أن يشرك معها غيرها فى فراشه. ولم يعرف عنه فى حياة خديجة، ولم يعرف عنه قبل زواجه منها أنه كان ممن تغريهم مفاتن النساء فى وقت لم يكن فيه على النساء حجاب بل كانت النساء يتبرجن فيه ويبدين من زينتهن ما حرم الإسلام من بعد فمن غير الطبيعى أن تراه وقد تخطى الخمسين ينقلب فجأه هذا الانقلاب.

وهنا أقول إن موسى جمع بين الأختين وسليمان له زيجات كثيرة فلماذا الإلحاح على الإسلام وحده فى تعدد الزوجات مع تقييده التعدد بشرط يستعصى على الطبيعة البشرية تنفيذه وكأنه ينفيه وما أتاحه ولاأقول أباحه إلا لضرورة الحروب أو العقم أو المرض العضال أو طبيعة بعض الرجال؟ فهو يبدأ بالواقعية وينتهى إلى المثالية فى بيئة رسخت فيها مواضعات معينة...

كما فعل فى (الخمر) وفى (رد الاعتداء) ابتداء: لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى.

وانتهاء (إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه).

وفى الاعتداء:

(فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم)

ثم (فمن عفا وأصلح فأجره على الله).

وإنا لنتساءل مع الدكتور هيكل:

وهل الاقتصار على زوجة واحدة نافذ فعلا بين أقوام هؤلاء النقادين من مستشرقين وغيرهم حتى ولو كان نافذا صوريا بحكم القانون؟ ألم تبح أوربا الحديثة بل الفاتيكان، التعدد؟

واستأنف الدكتور هيكل الحديث عن الغزوات فى الفصول (الثامن عشر إلى الفصل الخامس والعشرين).

ووقف الفصل السادس والعشرون عند إبراهيم ونساء النبى والفصل السابع والعشرون عند تبوك وموت إبراهيم الذى وافق توقيته كسوف الشمس فرأى المسلمون فى ذلك معجزة وقالوا: إنها انكسفت لموته وكان من الممكن أن يتعزى بهذه الكلمة أو يسكت عنها ولكنه أبى قائلا: (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لاتخسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله بالصلاة).

يقول الدكتور هيكل:

(لقد وقف من تناول من المستشرقين هذا الحديث لمحمد موقف الإجلال والإعظام ولم يستطيعوا كتم إعجابهم وإكبارهم وإعلان عرفانهم بصدق رجل لايرضى فى أدق المواقف إلا الصدق والحق).

ويقترب الكتاب بعد هذا من نهايته ونهاية السيرة الكريمة فيتحدث من الفصل الثامن والعشرين إلى الفصل الحادى والثلاثين عن عام الوفود وحج أبى بكر بالناس ويودع الفصل التاسع والعشرون الرسول فى حجة الوداع ليسرى عليه بعدها ما يسرى على البشر فهو فى النهاية رجل من رجالنا وهذا سر عظمته. لقد غير مجرى التاريخ وصنع من العظائم والكرائم والشمائل ما يعيى العصبة من الرجال أولى العزم.

لقد صنع من الصحراء أمة ودولة وخلافة وحضارة.

فى الفصل الحادى والثلاثين وفى خاتمة الكتاب أنشأ الدكتور هيكل مبحثين عن الحضارة الإسلامية فى مقارنة بينها وبين الحضارة الغربية.

يكفى الإسلام أنه لم يعرف (السلطة الدينية فليس لأحد من المسلمين ولو كان خليفة أن يفرض أمرا على الناس باسم الدين وأن يزعم أنه قدير مع ذلك على الغفران لمن خالف هذا الأمر وليس لأحد من المسلمين ولو كان خليفة أن يفرض على الناس غير مافرضه الله فى كتابه بل المسلمون أمام الله سواسية لافضل لأحد منهم على أحد إلا بالتقوى. وليس لولى الأمر على مسلم طاعة فى معصية ولا فيما لم يأمر به الله.

حتى الخير والشر لا يذلل الإنسان كما يقول الشيخ محمد عبده، للخير كما يذلل الحيوان بل القصد منه أن يرتقى عقله وترتقى نفسه بالعلم فيعمل الخير لأنه يفقه أنه الخير النافع المرضى لله ويترك الشر لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته وذلك فى تفسيره للآية الكريمة (ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لايسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون). سورة البقرة آية ١٧١.

لقد عابوا الإسلام بالسيف وما غزا المسلمون الأولون إلا دفاعا عن عقيدتهم (حين هددتها قريش وحين هددها العرب ثم حين هددها الروم وهددها الفرس وهم فى هذا الغزو لم يفرضوا على أحد دينهم فلا إكراه فى الدين وهم فى هذا الغزو لم يقصدوا إلى الاستعمار فقد ترك النبى ملوك العرب وأمراءها على إماراتهم وممالكهم.

أما أوربا فلا تغزو لتنشر عقيدة ولا لتدعو إلى حضارة. هى إنما تريد استعمارا وتريد أن تجعل من العقيدة المسيحية مطية هذا الاستعمار).

ومصداق قول الدكتور هيكل الحروب الصليبية... التى تسلقت المسيحية لتخفى الأسباب الحقيقية ومنها رغبة بعض الملوك والحكام من التخلص من منافسيهم فخلقوا لهم ميدانا يشغلهم ويغريهم فى الوقت نفسه ويحقق طموحهم بما يعوضهم عن الحكم فى أرضهم ثم طمع الغرب فى خيرات الشرق... ولاتزال الأطماع المادية هى التى تحرك الغرب فيخفيها تحت عباءة الدين تمسحا بالمسيحية وعداوة للإسلام.

إن الماريشال اللنبى الذى استولى على بيت المقدس سنة ١٩١٨ باسم الحلفاء، حين قال عند هيكل سليمان:

(اليوم انتهت الحروب الصليبية).

وقال الدكتور بيترس سميث فى كتابه عن سيرة المسيح (إن هذا الاستيلاء على بيت المقدس كان حربا صليبية ثامنة أدركت المسيحية فيها غايتها).

ليس الماريشال اللنبى أو الدكتور بيترس سميث صادقين.. فحروبهم ليست من أجل المسيحية ولكن من أجل أطماعهم دولا وأفرادا ومن أجل كسر شوكة الإسلام التى يغصون بها هل كانت هتفتهم (عدنا ياصلاح الدين) صادقة. إن صلاح الدين لم يبدأ بالعدوان ليردوا عليه بل هم البادئون...

على أن الإسلام بعد هذا كله سيظل قويا بذاته حتى فى حالات ضعفنا السياسى.

وبعد:

فهذا الكتاب بتفاصيله الدقيقة الموثقة المحققة موسوعة علمية أدبية عن حياة الرسول يحسب لمؤلفه شجاعته فى مواجهة خصوم الإسلام والرسول ومناقشة ما يفجرونه أو مايفتعلونه من قضايا مثل (الغرانيق) والزيجات وغير هذا واجه أقوال المستشرقين ورد عليهم وكشف عن خباياهم النفسية التى دفعتهم إلى «المساءات» كما يسميها المؤلف.

ومن الطريف أن الدكتور هيكل سجل على نفسه أيضا أقوال النقاد فى كتابه ورد عليها بالطبع وأحسبه فعل هذا تأسياً بأدب الإسلام وتأدبا بأدب القرآن...

إن كتاب (حياة محمد)

تبلغ فيه هذه الحياة من واقع تاريخها نصاعة تجعل (الإنسان) فى كل مكان يعتز بها فى إشراقاتها وفى آلامها حين تحيفها العذاب من الأهل والغرباء فيرتفع على الأسى والإساءة ويدعو لهم عفوا كريما (اللهم اهد قومى فإنهم لايعلمون)

بوركت يارسول الله
وبوركت سيرتك
وبوركت ذكراك.